المشاريع السان سيمونية بالصحراء المغاربية

د. نادية الرياحي
جامعة تونس

وضع السان سيمونيون في الصحراء المغاربية أفكارهم ومعارفهم الهندسية ومشاريعهم الصناعية موضع تطبيق فكانت الصحراء بالنسبة إليهم ورشة عمل كبرى. اتجه أتباع سان سيمون المسكونين برغبة في الاكتشافات الكبرى والمشاريع الصناعية العظمى إلى المدن الجزائرية الداخلية وخاصة إلى الصحراء بحثا عن الثروات الطبيعية وانجاز المشاريع الصناعية الكبرى في البنية التحتية والطرقات والموانىء والسكك الحديدية وتدعيم الموارد المائية خاصة بعد انخراط جلّهم في دعم المشاريع الصناعية الرأسمالية ومن أهمّ هذه المشاريع مشروع البحر الداخلي أو مشروع "البحر الصحراوي. بالاضافة إلى ذلك اهتم السان سيمونيون بالبحث عن مصادر الطاقة في الصحراء المغاربية من خلال اكتشاف المناجم واستغلالها. كما وضعوا في الجزائر مسألة الشبكات الاتصالية في المقام الأول، ولأنّ السكك الحديدية جزء من فلسفة الشبكات التي نظّر لها أتباع سان سيمون في إطار مقاربتهم العالمية الأبعاد، فقد اهتموا بانجاز عديد الخطوط الحديدية.

تعبر تجربة الجزائر في مسيرة وتاريخ المدرسة السان سيمونية عن المآل المتناقض لتطبيقات هذه المدرسة عندما توزع أتباعها بين محافظ على خطّ ونهج هذه المدرسة الاشتراكي الحالم بالانسانية العالمية المتكافئة عبر التنظير لمشاريع الوحدة والسلام وبين شقّ رأسمالي انخرط في تبرير السياسة الاستعمارية وخدمة المشاريع الرأسمالية.

Les projets saint simoniens
dans le Sahara maghrébin

Les saints simoniens ont essayé de mettre en œuvre leurs idées et leurs connaissances dans le désert maghrébin. En effet, le désert était pour eux un grand atelier. Les disciples de Saint-Simon ont allé vers les villes intérieurs de l'Algérie et, en particulier dans le désert à la recherche de ressources naturelles et pour réaliser des projets d'infrastructure, routes, ports, chemins de fer et de renforcer les ressources en eau. En effet, la majorité d'entre eux ont soutenu les projets industriels capitalistes. Les saints simoniens ont été les premiers qui ont pensé à réaliser le projet d'une mer Intérieure ou « la mer saharienne ». En outre, les saints simoniens ont été intéressés par la recherche des sources d'énergie dans le Sahara magrébin à travers la découverte et l'exploitation des mines. Egalement, les saints simoniens ont mis en Algérie, la pratique de la philosophie des réseaux, ils ont essayé de réaliser plusieurs lignes ferroviaires en Algérie.

L'expérience de l'Algérie reflète, dans le processus et l'histoire de l'école saint simonienne, le sort contradictoire des applications de l'école lorsque les adeptes sont repartis entre deux approches, une socialiste qui rêve de l'unité et de paix à l'échelle mondiale et une approche capitaliste qui justifie la politique coloniale et les projets capitalistes.

في تاريخ المدرسة السان سيمونية

السان سيمونيه مدرسة فكرية وضع أسسها النظرية الفيلسوف الفرنسي كلود هنري كونت دو سان **سيمون Claude Henri De Saint Simon**2 (1760–1825)، الذي حاول التنظير لأفضل السبل للنهوض بالمجتمعات الإنسانية وتوحيدها، وذلك عبر إرساء دعائم المجتمع الصناعي الجديد لتحقيق الرخاء الاجتماعي والأخوة الإنسانية من خلال الدعوة لبعث عدد من المشاريع الصناعية العالمية3.

وبعد موت سان سيمون سنة 1825 دون أن يشهد تحقيق هذه المشاريع التي وضع مخططاتها ورسم أهدافها الكبرى، حاول أتباعه من بعده مواصلة مسيرته فراحوا يبذلون الجهد لشرح فلسفته الاجتماعية وتقديم آرائه حول مقولات التقدم والرخاء الاقتصادي والعدالة الاجتماعية، بهدف تحقيق الوحدة العالمية بعد وضع حد للنزاعات والصراعات التي

غذتها المنافسة الاقتصادية والأنانية القومية بين الشعوب والأمم. وقد كان الأتباع على ثقة بأنّ المستقبل سيحمل النجاح لعقيدتهم: " **ستهيمن عقيدتنا في المستقبل...أكثر مما هيمنت المسيحية في العصور الوسطى...وسيواجه انتشار عقيدتنا مصاعب كبرى دون شك ولكننا على استعداد لتجاوز هذه الصعاب...سيكون النجاح حليفنا لأنّنا نتجه نحو الإنسانية**"4.

وهكذا دعا السان سيمونيون لإحلال السلام الدائم عبر ربط العالم بشبكات اتصالية من خلال شق عدد من القنوات المائية والبحرية مثل قناة السويس في المتوسط وقناة المانش بين فرنسا وأنقلترا، وقناة بناما وغيرها من القنوات وذلك لربط أوروبا بالشرق. وقد كانت الكتابات السان سيمونية في تلك الفترة من أبرز الكتابات التي تحثّ على الاتجاه إلى الشرق خاصة وأنّها قد تميزت بمقاربة اقتصادية جديدة وذلك في إطار إستراتيجية عالمية تدعو إلى دمج الشرق والغرب. وجد أتباع سان سيمون في الشرق مجالا لتطبيق فكرة الوحدة الإنسانية وإطارا لانجاز المشاريع الصناعية العالمية الكبرى. كما مثّل الشرق والغرب في الفلسفة السان سيمونية ثنائية المادة والروح، ولذلك فإنّ توحيدهما هو توحيد للروح

والمادة وتوحيد للعلم والصناعة وتوحيد للنظرية والتطبيق. ولذلك كان الأتباع يحملون للشرق اهتماما مزدوجا فمن جهة تطبيق الفلسفة الصناعية بأبعادها العالمية إذ كانوا يرون في الشرق مجالا لتطبيق مشاريع الوحدة. ومن جهة ثانية مثلّ الشرق في الفكر السان سيموني قيمة رمزية، باعتباره رمز » نداء المرأة« فلئن مثلّ الغرب العالم الذكوري فإن الأنثى هي الشرق وسيجمعهما المتوسط. يقول ميشال شوفالييه في الصحيفة السان سيمونية *الجلوب* Le Globe : "**سيصبح المتوسط محور شبكة من الاتصالات بين الشعوب...سيصبح المتوسط فراشا يجمع الشرق والغرب**"[5]

وكان ميشال شوفالييه قد دعا في إطار مشروع الكنفدرالية المتوسطية، التي حدّد خطوطها الكبرى في ما يعرف **بنظام المتوسط***، إلى توجيه حملة إلى مصر لتحقيق اللقاء بين الشرق والغرب لأنّه كان يعتقد أن الولادة الجديدة لأوروبا المرهقة بفعل الحروب وفشل الثورات الاجتماعية والمقولات الليبرالية لن تتحقق إلا إذا انفتحت على حضارات أخرى وتوحدت معها لتحقيق الوحدة الإنسانية الكونية[6] إذ أكدّ ميشال شوفاليه أنّ التوفيق بين مصالح الغرب والشرق يعتبر خطوة أولى في

سبيل التعاون لنشر السلام العالمي، لذلك دعا إلى إنشاء شبكات اتصالية متنوعة وعلى الخصوص شقّ قناة تصل بين البحرين المتوسط والأحمر. كما أكدّ في **نظام المتوسط** أنّ مصير أوروبا الاقتصادي والسياسي يتحدّد في المتوسط البحر المشترك بين الشرق والغرب7

وهكذا استقر رأي السان سيمونيين على الرحيل إلى الشرق وإلى مصر تحديدا، لإطلاق أكبر المشاريع الإنشائية والعمرانية، ولكن فشلهم في إقناع **محمد علي باشا** بشقّ قناة السويس جعلهم ينتقلون إلى الجزائر التي كانت قد استعمرتها فرنسا منذ سنة 1830، حيث عين الأب **أنفانتان Enfantin** ، زعيم المدرسة السان سيمونية، منذ سنة 1839 عضوا في اللجنة العلمية الاستكشافية الجزائرية8. وقد كلّف **أنفانتان** بالأعمال المتعلقة بدراسة الاثنوغرافيا والتاريخ والعادات والمؤسسات بالجزائر التي قضى فيها 22 شهرا (1839–1841) خصّصها لدراسة المسائل الجزائرية وتقديم آرائه حولها9.

كان **أنفانتان** يرى أنّ نجاح استعمار الجزائر لن يتم إلا عبر استقدام جاليات كبيرة من فرنسا لتحقيق الإستعمار عبر الإنصهار مع الشرقيين، إذ كان يقول: " **إنّ استقدام جاليات فلاحية وصناعية**

وتجارية وفنية وعلمية هو الحلّ الأمثل لتكوين وبناء الحضارة في الجزائر ولنجاح التجربة الاستعمارية"10. وقد تزعم تيار الجزائر– فرنسية، بعد إصداره لكتاب **استعمار الجزائر La Colonisation de l'Algérie ،** سنة 1843، والذي وضع فيه أسس السياسة الاستعمارية الواجب اعتمادها في الجزائر **11**.

وقد اتجه أتباع سان سيمون المسكونين برغبة الاكتشافات الكبرى والمشاريع الصناعية العظمى إلى المدن الجزائرية الداخلية وخاصة إلى الصحراء بحثا عن الثروات الطبيعية وانجاز المشاريع الصناعية الكبرى في البنية التحتية والطرقات والموانىء والسكك الحديدية وتدعيم الموارد المائية خاصة بعد انخراط جلّهم في دعم المشاريع الصناعية الرأسمالية.

مشاريع السان سيمونين في الصحراء المغاربية

وضع السان سيمونيون في الصحراء المغاربية أفكارهم ومعارفهم الهندسية ومشاريعهم الصناعية موضع تطبيق فكانت الصحراء بالنسبة إليهم ورشة عمل كبرى**12**. وقد استفاد السان سيمونيون من دعم الامبراطور نابليون الثالث لمشاريعهم خاصة بعد أن أصبح السان سيموني ميشال شوفالييه مستشار خاصا له.

1- مشروع البحر الداخلي أو مشروع "البحر الصحراوي": La mer intérieure

تطرق بعض الرحالة العرب مثل **الادريسي والبكري والتيجاني** منذ القرن الحادي عشر إلى منطقة الشطوط في الصحراء المغاربية. أما الرحالة الانكليزي **شوو Shaw** الذي زار نفطة وتوزر سنة 1740 فكان أوّل من تحدث عن توصيل منطقة الجريد ببحيرة تريتون التي ذكرها هيرودوت. وقد زار عدد من الرحالة الفرنسيين في وقت لاحق منطقة الشطوط ومن أبرزهم السان سيمونيين: **هنري فورنال Henri Fournel**سنة 1844 **وجون رينو Jean Reynaud** الذي زار الجريد سنة 1846، **ولويس براكس Louis Prax** الذي قام برحلة من الجريد التونسي إلى واد سوف بالجزائر بين سنوات 1850 و**1854 13**

كما يمكن الاشارة إلى رحلة **هنري ديفرييه Henri Duveyrier** من الواد إلى توزر في شتاء وربيع 1859 و1860، الذي كان أوّل من أكدّ أنّ الشطوط توجد في مستوى منخفض في الخارطة البحرية للمنطقة، عندما وضع عددا من الخرائط التفصيلية للمشروع. وقد عمل المهندس هنري فورنال، وهو من أبرز قادة المدرسة السان سيمونية على اعداد الرسوم

الهندسية لتحقيق هذه المشاريع وكان اهتمامه منصبّا بالأساس على البحث عن المياه الجوفية، التي اعتبرها الهدف الأساسي لكل عمل جيولوجي في افريقيا الشمالية14

وقد أولى السان سيمونيون أهمية قصوى لتوظيف التقدم التقني في خدمة مشاريعهم في الصحراء المغاربية ولإضفاء صبغة حضارية/إنسانية على المشاريع الاستعمارية الفرنسية وذلك خاصة من خلال التخطيط والإعداد لانجاز مشروع بحر داخلي بالجنوب التونسي والجزائري يربط خليج قابس بمنطقة الشطوط. وقد اقترن هذا المشروع باسم القائد العسكري والجغرافي الفرنسي السان سيموني **فرانسوا إلي رودار François Élie Roudaire**، (1836-1885) الذي كان مكلفا من قبل وزارة الحربية الفرنسية بأعمال اللجنة العلمية للاكتشافات الجيولوجية والأعمال المائية بالجزائر15والذي عرف بحنكته العسكرية وتجربته في تجميع المعلومات والأخبار منذ اشتراكه في التخطيط لتنفيذ مشروع قناة السويس في مصر. كان السان سيمونيون يريدون أن يجعلوا من الصحراء فضاء كبيرا للتبادل التجاري داخل القارة الإفريقية16. وكانوا يعتبرون أن القوافل وسيلة بدائية ولا تصلح لانجاز المشاريع الصناعية

الكبرى، ولذلك فقد عملوا على التخطيط لربط الصحراء بشبكة من الطرق المائية إضافة إلى مدّ شبكة من السكك الحديدية لفك عزلتها17

لقد كان هاجس رودار والسان سيمونيين من خلال هذا المشروع هو ربط الشعوب الصحراوية بشعوب السواحل. وقد اشتغل رودار في الجزائر على إنجاز عدد من الخرائط للمواقع ذات الأبعاد الإستراتيجية. كما أعدّ أثناء اقامته بالجزائر مجموعة من الدراسات والأبحاث الكرتوغرافية في سنوات 1870–1873. ومن أهم المشاريع التي اشتغل عليها رودار "**مشروع البحر الصحراوي الداخلي**" أثناء إقامته بمدينة بسكرة عندما كان مكلفا من قبل وزارة الحربية الفرنسية بأعمال اللجنة العلمية للاكتشافات الجيولوجية والأعمال المائية بالجزائر18

أما في تونس فقد بدأت مهمة رودار الاستكشافية في شطّ الجريد يوم 13 فيفري سنة 1876 وقد استقبل الوزير الأكبر **خير الدين باشا** هذه البعثة بنفسه وعزّز المجموعة بمترجم ووضع على ذمتها كل التسهيلات لتيسير عملها19 وقد وصلت البعثة عن طريق البحر إلى قابس يوم 26 فيفري20 1876. وقد انتهى رودار إلى ضرورة انجاز البحر الداخلي وربطه بشطّ الجريد على مستوى وادي المالح بحفر قنال حسب خط مستقيم، مقترحا

حفر بحر في منطقتي الجريد ونفزاوة لربطهما بخليج قابس. كما أعدّ رودار ملفا مصورا عن المنطقة وخارطة مبدئية لعمليات الحفر من قابس إلى غاية منطقة الشطوط. ويمتد هذا المشروع من بلاد الأوراس إلى خليج قابس على أن يتفرع هذا الخط إلى عدد من الشطوط وهي شط الجريد وشط الفجيج وشط ملغير وشط الغرسة21 . وقد اعتمد رودار في اختبار صحة هذه الفرضيات، أي تصور هذا المشروع والاعداد له، على عدد من خريجي المدرسة الهندسية بباريس من السان سيمونيين ومن أشهرهم **فرديناند دي ليسبس Ferdinand de Lesseps وشارل** قابي **Charles Gaby** اللذان قاما بمهمات علمية في الجزائر وتونس للغرض ذاته22. وقد اعتمد رودار على عدد من المعطيات العلمية الثابتة لتأكيد امكانية انجاز هذه المشاريع:

- توفر المياه على طبقات ذات نسب ملوحة عالية بهذه المناطق
- اكتشاف أصداف بحرية في منطقة الشطوط والسبخ
- انخفاض نقاط كثيرة في منطقة الشطوط على مستوى سطح البحر وخاصة في المنطقة الشمالية الصحراوية.

كما عمد رودار ورفاقه من المهندسين السان سيمونيين إلى بحث بيبليوغرافي توثيقي في كتابات القدامى لتأكيد

فرضياتهم حول امكانية إقامة هذا المشروع وعادوا إلى أعمال **هيرودوت** Hérodote **وسيلاكس** Scylax **وبومبونيوس** ميلا **Pomponius Mêla**، العالم الجغرافي في الإمبراطورية الرومانية، كما اطلعوا على البحث الذي أعدّه الرحالة الأنقليزي **توماس شوو** **Thomas Shaw** (1692– 1751) في القرن الثامن عشر، والذي سبق أن تحدث عن وجود منطقة الشطوط في بحيرة تريتون القديمة23. وقد دافع عن هذه الفرضية العملية عدد من المختصين في ما بعد مثل الجيولوجيان **فيرلي داست** **Virlet d'Aoust** (1800–1894) **وديلكوب** **Dulcop** **وخاصة أرنست كاريت** **Ernest Carette**24 . وقد أكدّ المهندس السان سيموني **مارتينيز** **Martinez** سنة 1864 بعد عودته من رحلة استطلاعية قادته إلى الصحراء الجزائرية التونسية ذلك بقوله: " **توجد مجموعة من الشطوط والبحيرات المالحة في مستوى منخفض ببعض الأمتار عن مستوى سطح البحر المتوسط وهي بقايا البحر الداخلي، وآخر هذه الشطوط، بحيرة الفجيج الكبيرة على بعد** 16 **كيلومترا من البحر...يجب أن تشقّ هذه القناة لتعود الصحراء بحرا من جديد**"25

هكذا إذن دعم الوجود المفترض سابقا لبحر داخلي بالصحراء المغاربية أفكار السان سيمونيين لاعادة الحياة والازدهار إلى هذه المناطق التي أصبحت قاحلة بعد التحولات الجيولوجية التي عرفتها. ولتحقيق ذلك اقترح رودار والمهندسيين السان سيمونيين الحفر في مستوى خليج قابس لجعل المياه في نفس مستوى الشطوط اعتمادا على الامكانيات التقنية الحديثة وخاصة بعد نجاح فرديناند دو ليسبس في شقّ قناة السويس سنة 1869 وهو ما اعتبر من أهم المشاريع الانسانية في القرن التاسع عشر. كتب **رودار** تقريره الأول عن البحر الداخلي الصحراوي في جانفي سنة 1877، ثم نشر كتابا بعنوان **البحر الداخلي الإفريقي** في سبتمبر 1883 سنوات قليلة بعد أن كتب **فرديناند دي ليسبس** تقريره حول مشروع حفر قناة السويس. كما أنشأ **رودار** و**فرديناند دو ليسبس Ferdinand De Lesseps** في ديسمبر 1882 **جمعية دراسات البحر الداخلي الإفريقي على** غرار **جمعية الدراسات حول قناة السويس**، غير أنّ هذه الجمعية اختفت في سنة 1892 بعد موت **رودار**، وتحوّلت إلى **الشركة الفرنسية للجنوب التونسي**[26]

لقد دافع رودار عن ضرورة اشتغال الانسان على تهيئة الطبيعة لخدمة الانسانية وتعد هذه الأفكار جوهر الفلسفة السان سيمونية الحالمة بمستقبل أفضل للانسانية عبر توظيف جيوش صناعية سلمية بدلا من الجيوش النظامية التقليدية القائمة على الحروب وذلك بهدف تحسين مستوى عيش السكان المحليين. كما قدّم رودار مجموعة من الأسباب التي تشجع على انجاز هذا المشروع من بينها فكّ العزلة عن سكان الصحراء27. إذ كان يعتقد أنّ شق هذا البحر الداخلي قادر على " **تغيير بيئة وطبيعة المنطقة وستصبح شبيهة بالطبيعة الفرنسية لأنّ المناخ المتوسطي الرطب سيحل محلّ المناخ الصحراوي وسوف يكون بالامكان تثبيت الرمال بزراعة الصنوبر وستنتشر الينابيع وتصبح الأرض أكثر خصوبة**"[28]

ورغم كل ذلك فلم ير مشروع رودار النور كجلّ المشاريع السان سيمونية الطوباوية الحالمة. ولكن **جيل فارن Jules Verne**، كاتب روايات الخيال العلمي في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حاول إعادة اطلاق هذه الفكرة ودعا إلى انجازها في روايته الشهيرة بعنوان: **عشرون ألف مكان تحت البحار Vingt mille lieux sous la mer** أو في

المقالات التي كان يكتبها بمجلة **Musée des familles** وخاصة مقاله الصادر في جويلية 1876 بعنوان " **مؤسسات كبرى، انشاء بحر داخلي بالجزائر**" : « **Grandes entreprises, création d'une mer intérieure en Algérie**». يقول فارن في روايته **عشرون ألف مكان تحت البحر**: " **إنّ حمل الماء من البحر إلى هذه الشطوط سيعيد تشكيل هذا البحر الداخلي الذي سيسهل التواصل مع مقاطعاتنا الافريقية، كما سيلطف من قساوة الصحراء...هذا هو المشروع الذي حلم به السيد رودار**"[29].

وقد أحيا فارن في هذا الكتاب الحلم السان سيموني القديم بشقّ بحر داخلي بالصحراء المغاربية وكثيرا ما حمل احالات على مشروع رودار ورفاقه السان سيمونيين وخاصة دي ليسبس. وقد طرح جيل فارن مشروع رودار خاصة في القسم الرابع الذي عنونه: البحر الصحراوي". وكان جيل فارن قد دعا إلى توجه المهندسين وكبار الرأسماليين الأوروبيين إلى انجاز هذه المشاريع لتحقيق الازدهار بالصحراء المغاربية لهذه المناطق في روايته **عشرون ألف مكان تحت البحر**.

دافع **جيل فارن** طوال حياته عن مشروع البحر الصحراوي وذلك عبر دعم الاستعمار الأوروبي لبلاد المغرب

بدمج ثنائية تطور العلوم والتقنيات الحديثة ودفع المهمة الحضارية لشعوب الشرق وهي فكرة دافع عنها كل دعاة الاستعمار الأوروبي. وكان المهم بالنسبة إلى فارن هو تحويل الحلم إلى واقع وكل الوسائل في نظره كانت مشروعة لتحقيق ذلك30

وقد انخرط أتباع سان سيمون بدورهم في هذه السياسة الاستعمارية عبر الاشتغال على عدد من المشاريع الصناعية الرأسمالية ومن أبرزها البحث عن مصادر الطاقة في الصحراء المغاربية خاصة وأنّ أغلبهم كانوا من خريجي المدرسة بباريس، الهندسية الحالمين بانجاز مشاريع صناعية كبرى تستلزم بالضرورة جملة من الموارد الطاقية والمنجمية.

2- البحث عن مصادر الطاقة في الصحراء المغاربية:

علاوة على مشروع البحر الداخلي اهتم السان سيمونيون بالبحث عن مصادر الطاقة في الصحراء المغاربية من خلال اكتشاف المناجم واستغلالها. وكان المهندس السان سيموني **أرنست كاريت** أول من لفت انتباه **أنفانتان** إلى الثروة المنجمية بمقاطعة قسنطينة، وقد بادر هذا الأخير بإرسال هذه التقارير إلى البوليتكنيكي السان سيموني **بولان تالابو** Paulin

Talabot، غير أنّ الفضل الكبير في الاكتشافات المنجمية على طول الحدود الجزائرية التونسية يعود إلى المهندس السان سيموني **هنري فورنال Henri Fournel**31.

كان مهندس المناجم **هنري فورنال** (1799–1876) الذي التحق بالمدرسة الهندسية بباريس سنة 1820 مهندسا مختصا في المناجم وقد عرف خاصة بوضعه لمخطط شبكة السكك الحديدية بمدينة باريس، وقد استقال من عمله وهو في أوج نجاحاته ليتفرغ كليا لنشر مبادئ المذهب السان سيموني، وذلك بداية من سنة 1828، من خلال الإسهام في كتابة عدد من المقالات في الصحيفة الناطق بلسان السان سيمونية **الجلوب Le Globe** وإلقاء عدة محاضرات دعائية للمدرسة وقد قاد **هنري فورنال** إلى جانب **أنفانتان** الأتباع، بعد سنة 1832، نحو المرحلة التطبيقية في تاريخ المدرسة السان سيمونية وذلك بالانخراط في المشاريع الرأسمالية وهو ما تدعم خلال تجربة الجزائر الاستعمارية32.

وصل **هنري فورنال** إلى الجزائر في 13 مارس 1843 وانطلق مباشرة في إنجاز أوّل خريطة جيولوجية للجزائر لاكتشاف مواطن الثروات الطبيعية بها، فقد كان **هنري فورنال**

جغرافيا وفي نفس الوقت مهندسا جيولوجيا وهو ما مكنّه من القيام بعدة دراسات جيولوجية بالجزائر وخاصة بمدينة بسكرة ويعود له الفضل في اكتشاف أول منجم بالجزائر سنة29 184433 وقد كتب عن ذلك في الجزء الثاني من كتابه **الثروة المعدنية** La Richesse Minérale **30،**34 ليقدم أول دراسة جيولوجية للمنطقة وهي وثائق استعملها في ما بعد كل من كتب عن المنطقة وخاصة الشركات التي استثمرت فيها35.

كما يعود للإخوة السان سيمونيين **تالابو** Talabot الفضل في استغلال أولى مناجم الحديد في الجزائر بعد أن منحتهما وزارة الحرب الفرنسية في 23 سبتمبر 1845 تصريحا باستغلال المناجم الموجودة في شمال بحيرة فتزارا fetzara لمدة 6 أشهر36 ولكن استغلال المناجم كان يتمّ بصورة متقطعة نظرا لانعدام الأمن في المنطقة ولمقاومة الطوارق المستمرة لهم. وقد أدّت جهود الأخوين تالابو إلى اكتشاف 4 مناجم من الحديد وهي موركا ومابودية وكاريسيس وبوحمرا والتي أشرف عليها ليون تالابو37 وبالتالي استحوذ الاخوة تالابو على إنتاج الحديد في افريقيا الشمالية38. وقد عبرت صحيفة **"من الجزائر"** De l'Algérie التي أصدرها السان سيمونيون بداية من سنة 1843

عن سرورها بذلك. غير أنّ هذه النجاحات لم تكن لتخفي الصعوبات التي كان يتعرض لها السان سيمونيون في الجزائر بسبب معارضة السلط العسكرية بها لهذه الأشغال. فقد منعت السلطات العسكرية سنة 1846 **جيل تالابو Jules Talabot** من إرسال الثروات المنجمية إلى مرسيليا. إلا أنّ نابليون الثالث قد دعمّ جهود الأخوين تالابو عندما أصبح ميشال شوفالييه مستشاره الخاص وذلك بدعم المشاريع السان سيموني التي نظّرت لمدّ شبكة من السكك الحديدية لتأمين نقل منتوجاتهم ومن ثمة تسهيل تصديرها إلى فرنسا.

3- مدّ شبكات السكك الحديدية

لقد وضع السان سيمونيون في الجزائر مسألة الشبكات الاتصالية في المقام الأول، وقد مثّلت مسألة السكك الحديدية جزءا من فلسفة الشبكات التي نظّر لها أتباع سان سيمون في إطار مقاربتهم العالمية الأبعاد. وقد اقترح بولان تالابو إنشاء شبكة من الخطوط الحديدية بطول 32 كلم من كاريزاس إلى سايبوز لنقل الثروات المنجمية إلى بون **Bône** . ولكن كان على السان سيمونيين الانتظار لمدة ثلاثة سنوات كاملة لبذل الكثير من الجهد من أجل إقناع الحكومة بالمشروع وجلب المواد

اللازمة لانجاز الخط الحديدي. وقد تدخل الإمبراطور نابليون الثالث لتسريع ذلك وذلك بفضل تأثير مستشاره السان سيموني ميشال شوفالييه. وهكذا أنشأ الخط الذي ستسير عليه العربات المنجمية، وبفضل ذلك ازداد عدد العمال في السنوات اللاحقة ليصل إلى 450 عاملا كما ازداد الإنتاج، وكان الإخوة تالابو يفكرون في مشروع تمديد الخط الحديدي جنوبا وغربا39.

كما كان إيميل بيرير يستبق إنشاء شبكة حديدية في الجزائر منذ سنة 1833 وقد كتب في صحيفة لوناسيونال **Le National** داعيا إلى التسريع بإنشاء خط حديدي يربط مدينة *بون* بقسنطينة وآخر يربط الجزائر بوهران. كما دعا الجنود للقيام بهذه الأشغال، وحدد **بيرير** قيمة النفقات ب20 إلى 25 مليون فرنك. لقد كان مشروع إيميل بيرير غريبا وقتها نظرا لأن فرنسا لم تكن قد أنشأت حتى ذلك الوقت خطا كبيرا واحدا. وقد كان المهندس السان سيموني **فريديريك لاكروا** **Frédéric Lacroix** يرى ضرورة إنشاء مؤسسة عالمية بمشاركة رأسماليين أنقليزيين وألمانيين إضافة إلى الفرنسيين لتنفيذ هذا المشروع40.

اجمالا وضع السان سيمونيون مشروع شبكة اتصالية متكاملة لربط مختلف الأقاليم بالصحراء الجزائرية من خلال انجاز الخطوط التالية:

من الجزائر إلى وهران مرورا ببوفاريك وبليدة وعمورة وريليزان.

- خط عمورة-قسنطينة إلى فيليبفيل وبون عبر وادي بومرزوق وأولاد زناتي وبوحمدان.

- خط تلمسان-مسكارا عبر سيدي بالعباس. وأخيرا عددا من الفروع على مستغانم وتانز وبوجي41.

وقد حاول السان سيمونيون أن يجعلوا من الجزائر محطة عبور تربط شمال القارة الافريقية بجنوبها، لذلك عملوا على انجاز خط حديدي عابر للصحراء، فقد كان دي ليسبس يفكر في إقامة خطّ حديدي من قفصة إلى الواد المالح ولم ينفذ هذا المشروع إلا سنة 1885 باشراف الاخوة السان سيمونيين بيرير42.

رغم أنّ السان سيمونيين في الجزائر قد ساهموا في إرساء دعائم النظام الاستعماري وذلك من خلال التنظير لعدد من المشاريع ذات الطابع الرأسمالي كاستغلال المناجم المكتشفة في الجزائر تحت

غطاء مهمة الغرب الحضارية للشرق عامة والجزائر خاصة43. فإنّ الشقّ الاشتراكي داخل المدرسة السان سيمونية قد عارض السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر ومن أشهرهم **اسماعيل ايربان** Ismail Urbainالذي أطلق شعار **"الجزائر للجزائريين"** في سنة 1861. وناضل طوال حياته لفكرة الجزائر للجزائريين ولمساعدة فرنسا لها على الالتحاق بركب الحضارة والحداثة وذلك بعد دمج الجن

4 – مشاريع الوحدة والسلام:

دعا **إسماعيل ايربان** إلى انجاز عدد من المشاريع التي تعود بالنفع على السكان المحلين، وناضل طيلة حياته من أجل فكرة التواصل الحضاري السلمي لكي يكون الجزائريون أحرارا ومساويين للمواطنين الفرنسيين، وهي الفكرة التي كان يرفضها فرنسيو الجزائر، وحلم بمصالحة بين الشرق والغرب، بين الفرنسيين والجزائريين، ونادى خاصة بفكرة **الجزائر للجزائريين**. كما حاول **إسماعيل ايربان** جاهدا تقريب نظريات المذهب السان سيموني لآرائه حول السياسة الفرنسية في الجزائر. وكان **ايربان** المعارض لمشروع المعمرين القائم على الاستحواذ على الأراضي الجزائرية ينتقد أفكار **ميشال** شوفالييه **Michel Chevalier** الذي يخلط بين أمريكا وإفريقيا ففي الجزائر لن يقدم العرب على تقديم أراضيهم مثلما فعل الهنود، كما أن طبيعة المناخ لا تسمح بتوطين عدد كبير من الأوروبيين،

إضافة إلى أن الأرض في الجزائر جافة وليس هناك وسائل مواصلات، لذلك يجب أن يكون هناك استثمار صناعي لا استعمار فلاحي44.

وقد كتب **إسماعيل ايربان** إلى أحد أصدقائه المتنفذين يطلب منه إقناع الحكومة الفرنسية بإنشاء معهد في مصر يضمّ الأوروبيين والعرب وذلك لخدمة محمد علي باشا، وعلى أن تعقد اتصالات واسعة بينه وبين اللجنة العلمية الجزائرية45. وقد وضع **إسماعيل ايربان** أسس هذا المعهد وقسمه إلى ثلاثة أقسام، يضمّ القسم الأول علوم الرياضيات والفلك والفيزياء والجيولوجيا والمناجم والجغرافيا والصيدلة والكيمياء والتاريخ الطبيعي، في حين يضمّ القسم الثاني الأركيولوجيا والرسم والمعمار وصناعات الفلاحة، أما القسم الثالث فيضم اللغة والآداب العربية46. وقد نجح **إسماعيل ايربان** في إقناع الحكومة بإنشاء **المعهد الملكي الفرنسي العربي** بالجزائر سنة **1857** وقد نصح السلطات بإسناد مهمة الإشراف عليه لصديقه الطبيب **نيكولا** بيرون **Nicolas Perron**، وذلك بعد أن وضع له برنامج تدريس يقوم على عدد من النقاط:

أولا: تعليم اللغات الحية.

ثانيا: ايلاء أهمية كبرى للرسم في برنامج التعليم، ثالثا: إدخال عدد من التقنيات الصناعية في برنامج التكوين، وأخيرا تطويع التعليم لطبيعة البلاد ولهدف توحيد الشرق والغرب 47

لقد عمل **إسماعيل ايربان** على التوحيد الروحي بين الحضارات والثقافات الشرقية والغربية من خلال البحث عن القيم المشتركة الأساسية للديانات الكبرى، فحاول البحث عن نقاط التلاقي والتقاطع بين المسيحية والإسلام، بين العالم الغربي والعالم العربي وبين الجنس الأبيض والجنس الأسود من أجل دمجهما، وقد كان ذلك هدف حياته كلها ورهانه الأكبر الذي دافع عنه في كل أعماله ومؤلفاته، لقد كان **إسماعيل ايربان** " رجلا في مفترق طرق ثقافات كثيرة لم ينفك طوال حياته عن الانتقال من ضفة إلى أخرى في المتوسط، لقد أراد أن يجعل من الجزائر مجتمعا يتعايش فيه المسلمون والأوروبيون دون أن تكون العلاقة بينهما علاقة سيد بتابع ومن حيث فشل ايربان يمكن أن تولد أفكارنا"[48]

ولكن هذه الأفكار ظلّت مجرد أحلام طوباوية تراود فكر هذا المنظر، فرغم أنّه كان موظفا مبجلا بفضل معرفته بالجزائر والجزائريين وبفضل ثقافته الواسعة، حيث عينّ سنة **1858** كرئيس مكتب بوزارة الجزائر الجديدة غير أنّه لم يستطع فرض أفكاره على الوزراء الذين لم يكن يعنيهم سوى دفع سياسة الاستعمار[49] وهكذا كانت فكرة الجزائر الفرنسية-

الإسلامية أو الجزائر- الفرنسية العربية مجرد يوتوبيا سان سيمونية حالمة ونظرية غير قابلة للتحقيق50

الخاتمة

رغم فشل وتعثر بعض المشاريع السان سيمونية الانسانية في الصحراء المغاربية إلا أنّ بعض الكتابات السان سيمونية قد قدمت دراسات أنتروبولوجية ومن أبرزها أعمال هنري ديفرييه، الذي وضع في الجزائر أكبر كتاب حول الصحراء بعنوان **طوارق الشمال** سنة **1864**. كان هنري ديفرييه متأثرا بالمذهب السان سيموني الذي كان والده من أبرز اعلامه. وفي سن السابعة عشر رحل هنري إلى الجزائر والتقى في الأغواط بأحد الطوارق واسمه آجر. وقد مهدّ له هذا اللقاء الطريق لكي يقيم بالصحراء مع الطوارق لمدة ستة أشهر (**1860-1861**) وقد كتب بعد هذه الرحلة كتابا بعنوان **طوارق الشمال**. وقد أسندت له الجمعية الجغرافية الفرنسية الميدالية الذهبية نظير مؤلفه هذا. كما درس ديفرييه الطريقة السنوسية اضافة لدراسة الطوارق والمجتمع الصحراوي المغاربي، وقد بحث هذا الكتاب في عادات وتقاليد الطوارق ونمط عيشهم وطرقة لباسهم وعادات أكلهم وزيهم وطقوسهم الاحتفالية.

تعبر تجربة الجزائر في مسيرة وتاريخ المدرسة السان سيمونية عن المآل المتناقض لتطبيقات هذه المدرسة عندما توزع أتباعها بين

محافظ على خطّ ونهج هذه المدرسة الاشتراكي الحالم بالانسانية العالمية المتكافئة عبر التنظير لمشاريع الوحدة والسلام وبين شقّ رأسمالي انخرط في تبرير السياسة الاستعمارية وخدمة المشاريع الرأسمالية. فقد فرض **أنفانتان وميشال شوفالييه** تغيير وجهة المدرسة السان سيمونية من الدعوة إلى الاشتراكية إلى الانخراط في المشاريع الرأسمالية الكبرى تخطيطا وتمويلا وانجازا، وذلك عندما حلّت المصالح الاقتصادية الرأسمالية، القائمة على تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح، محلّ التنظيرات للاشتراكية القائمة على تحقيق العدالة الاجتماعية والوحدة الانسانية[51]

الهوامش

[2] لمزيد التفاصيل حول ترجمة سان سيمون انظر:

M.G. Hubbard, Saint *Simon, sa vie et ses travaux, suivi de fragments des plus célèbres écrits de saint Simon*, Guillaumin, Paris, **1857** ; Sébastien Charlety, *Histoire du saint-simonisme (1825-1864)*, Paris, Editions Gonthier, **1931**, Alfred Pereire, *Autour de Saint-Simon, Documents originaux*, librairie spéciale pour l'histoire de France, Paris, Honoré Champion, **1912** ; Paul Janet, *Saint- Simon et le saint-simonisme*, Paris Librairie Germer Baillière, **1878**; D'Allemagne Henry- René, *Les saints- simoniens*, **1827-1837**, Paris, Grund, **1930**.

[3] Jean René Derré, *Regards sur le Saint-simonisme et les Saint-simoniens*, Lyon, Presses Universitaires de Lyon, **1986**, pp. **186-206**.

[4] *Le Globe, Journal de la doctrine saint-simonienne,* **15** novembre **1831**.

[5] *bid.*

*قدم ميشال شوفالييه على أعمدة صحيفة *الجلوب* *Le Globe* في الفترة الممتدة من 12 فيفري إلى 20 فيفري 1832 ما أسماه ***نظام البحر المتوسط*** ويهدف هذا المشروع إلى التوفيق بين مصالح الشرق والغرب كخطوة أولى في سبيل الوحدة والسلام العالمين. والوسيلة التي تؤدي

إلى ذلك هي وسائل الاتصال المختلفة. إن أوروبا في نظر شوفالييه بإمكانها أن تحمل المدنية إلى القارة ألآسيوية وذلك بتوسع الروس في أصقاعها الشمالية والإنجليز في الوسط والأتراك في الغرب، ويستطيع الأمريكيون المساهمة في هذا العمل في الجهات الشرقية من آسيا. ولتسهيل نقل المدنية من أوروبا وأمريكا إلى آسيا يجب قي رأي شوفالييه شق برزخي السويس وبناما، علاوة على مد خط حديدي من سومطرة إلى الخليج الفارسي والفرات.

[6] Philippe Régnier, *Les Saint-simoniens en Egypte (1833-1851)*, Le Caire, Amin Abdelnour, **1989**, p.**7**.
[7] *Ibid,* p. **10**.
[8]Henry René D'Allemagne, *op.cit,* p. **26**.
[9] *Ibid*, p. **162**
[10] Enfantin, *Colonisation de l'Algérie,* Paris, Librairie Pierre Bertrand, **1843**, p. **12**.
[11] René Galissot, *La république française et les indigènes : Algérie colonisée, Algérie algérienne 1870-1962*, Paris, Editions de l'Atelier, **2007**, p.**128**.
12 Numa Broc, *Dictionnaire illustré des explorateurs et grands voyageurs français du XIXéme siècle*, Paris, CTHS, t.I, p.**128**.
[13] *Ibid,* pp.**132-134**.
[14] Trumelet Capitaine, *Les français dans le désert,* Paris, **1862**, pp. **55-56**.
[15] Gabriel Dubost, *Le Colonel Roudaire et son projet de mer intérieure saharienne*, Paris, **1998**, p.**78**.
[16] Marcel Emerit, *Les saints- simoniens en Algérie*, Paris, Société d'édition les belles lettres, **1941**, p. **219**.
[17] *Ibidem.*
[18] Gabriel Dubost, *Ibid,* p. **100**.
[19] Charles Tissot, *Exploration scientifique de la Tunisie, géographie comparée de la province romaine d'Afrique,* Paris, Imprimerie Nationale, **1884**, p. **117**.
[20] Valéry Mayet, *Mission scientifique d'exploration de la Tunisie*, Montpellier, **1886**, p. **227**.
[21] Georges Lavigne, « Le percement de l'isthme de Gabés », *Revue moderne*, Paris, n° **29**, **1876**.
[22] Jacques Valette, « Le projet de mer intérieur du colonel Roudaire et la politique coloniale de la III République » ? *Revue d'histoire maghrébine,* n° spécial, Janvier **1977**, p.**251**.

[2]3 Daniel Nordman, *L'invention scientifique de la méditerranée, l'exploration scientifique de l'Algérie*, Paris, Ecole des hautes études en sciences sociales, **1998**, p. **45**.
[2]4 René Létoile, *Histoire d'une mer au Sahara*, Paris, L'Harmattan, **1997**, p. **129**.
[2]5Charles Tissot, *op.cit,* p. **92**.
[2]6 René Létolle et Hocine Bendjoudi, *Histoire d'une mer au Sahara: utopies et politiques*, Paris, L'Harmattan, **1997**, p. **113**.
[2]7 Gérard Dubost, *Le colonel Roudaire et son projet de mer saharienne*, Paris, Guéret, **1998**, p. **107**.
[2]8 *Ibid, p. **118**.*
[2]9 Jules Vernes, *Vingt mille lieux sous la mer*,
[3]0Issam Marzouki et jean –Pierre Picot, *Jules Verne, l'Afrique et la méditerranée, l'Afrique du nord selon jules verne ; une terre d'élection des utopies saint simoniennes*,
[3]1 Marcel Emerit, *op.cit,* p. **182**.
[3]2 Georges Weill, *L'école saint simonienne : son histoire, son influence jusqu'à nos jours*, Paris, Scientia Verlag, **1979**, p.**243**.
[3]3 Lionel Latty, Henri Fournel, **1799-1876**, ingénieur du corps des mines, saint-simonien : sa vie, ses oeuvres, sa contribution au développement économique, industriel et social de son époque, Lille, Atelier national de reproduction des thèses, **2000**, p.**217**.
[3]4 Henri Fournel, *Richesse minérale en Algérie, accompagnée d'éclaircissements historiques et géographiques sur cette partie d'Afrique septentrionale,* Paris, Imprimerie Nationale, **1850-1854**.
35 *Ibid,* p.**243**.
[3]6 Archives nationales, f **80/ 1777**, citée dans Marcel Emerit, *op.cit*, p. **231**.
[3]7 Marcel Emerit, *op.cit*, p. **184**.
[3]8 Archives nationales, f **80/ 1777**, citée dans Marcel Emerit, *op.cit*, p. **185**.
[3]9
[4]0 *Ibid*, p. **189**.
[4]1 Elisée Reclus, *Nouvelle géographie universelle, Afrique Septentrionale,* Paris, Hachette, **1886**, pp. **344-347**.
[4]2 Marcel Emerit, *op.cit,* p. **205**.
[4]3 Mustapha Lacheraf, *L'Algérie nation et société*, Paris, Maspero, **1965**, p.**131**.
[4]4 Lettre d'Ismail Urbain à Lacroix, le **4** mars **1862**, Arsenal **7612**, fasc. **78**, citée dans Marcel Emerit, *op.cit*, p. **389**.

[4]5 Lettre d'Ismail Urbain à Saint Sir Nugues, sans date, Arsenal **7612**, fasc. **79**, citée dans Marcel Emerit, *op.cit,* p. **159**.
[4]6 Archives du Gouvernement Général de l'Algérie, registre des délibérations du Conseil d'enseignement et du conseil de discipline du collège arabe-francais (du **19** juin **1858** au **28** juin **1866**), citée dans Marcel Emerit, *op.cit,* p. **167**.
[4]7Marcel Emerit*, op. cit*, p.**169.**
[4]8 Jérôme Debrune, « La part de l'Autre dans la quête de soi », Cahiers d'études africaines, **166**, **2002**, p.**381**.
[4]9 René Galissot, *op.cit.,* p.**96**.
[5]0 Michèle Riot-Sarcey, *Le réel de l'utopie: essai sur le politique au XIXe siècle*, A. Michel, **1998**, pp.**159-160**.
[5]1 Sébastien Charlety, *op.cit.,* p.253.